

أخْفِضِ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالتَّفْتِ بِالنُّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ  
وقال في مثل ذلك :

لا أسأل عما في ضمائرهم ما في ضميري لهم مني سيكفيني  
وقال حمزة بن بيض :

لم يَكُنْ عن جناية أَحِقَّتْني لا يساري ولا يميني جَنَّتْني  
بل جَنَّاها أَخُ عليّ كَرِيمٌ وعلى أهلها براقشُ تَجُنِّي

لان هذه الكلبة - وهي براقش - انما نبحت غزياً وقد مروا من ورائهم وقد رجعوا خائبين مخفقين ، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها فاستباحوها ولو سككت كانوا قد سلموا ، فضرب ابن بيض بها المثل . وقال الأخطل :

تَنقُ بلا شيء شَيوخُ مُحارِبٍ وما خَلَّتْها كانت تَرِيشُ ولا تَبْرِي  
ضَفادعُ في ظُلَماءِ ليلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلُ عليها صوتُها حَيَّةُ النُّهْرِ

وقالوا : الصمت حكم وقليل فاعله ، وقالوا . اسْتُكْرَ من الهيبة صامتٌ . وقيل لرجل من كلب طويل الصمت : بحق ما سمتكم العلماء خُرس العرب ! فقال : أُسْكُتُ فأسْلَمُ وأسْمَعُ فأعلم . وكانوا يقولون : لا تعدلوا بالسلامة شيئاً ، ( فإنك ) لا تسمع الناس يقولون : جلد فلان حين صمت ولا قتل حين سَكَتَ ، وتسمعهم يقولون : جلد فلان حين قال كذا وكذا وقُتل حين قال كذا وكذا . وفي الحديث المأثور : رحم الله مَنْ سَكَتَ فَسَلِمَ أو قال خيراً فَغَنِمَ . والسلامة فوق الغنيمة لأن السلامة أصل والغنيمة فرع .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله يَبْغِضُ البليغَ الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها » .

وقيل : ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وقال صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبیین : انما عاب النبي صلى الله عليه وسلم المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابي المتشادق ، وهو الذي يصنع بفيه وشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر ، فَمَنْ تكلف ذلك منهم فهو أعيب والذم له ألزم . وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع ، ومدار العلم على الشاهد والمثل . وإنما حثوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل . ولعمري إن الناس الى الكلام لأسرع ، لأن في أصل التركيب أن الحاجة الى القول والعمل أكثر من الحاجة الى ترك